العذبة من الفرات اليها فامتدت في الاراضي المحيطة بها البساتين وحقول القمح • وسرع الأعيان وشيوخ القبائل والوفود من مختلف المدن الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني ، كما وصل بغداد الشيخ راشد ابن أمير البصرة مغامس بن مانع ، يعلن انضمام البصرة والحويزة ولورستان الى العثمانيين ، وبذلك سيطر العثمانيون على واحد من الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الاقصى باوربا ، كما سيطروا على الرأس الشمالي للخليج العربي •

وترتبت عليهم نتيجة لذلك ، مسؤوليات دفاعية جديدة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي • فأمر السلطان باعداد الاسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين الذين تزايد نفوذهم في البحار العربية، ثم عيّن حاكم ديار بكر سليمان باشا الطويل والياً على بغداد ، وابقى فيها حامية مؤلفة من ١٠٠٠ جندي مزودين بالاسلحة النارية و ١٠٠٠ فارس ، وهيأ لها تموينا كافياً للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم ايراني ، وعاد بطريق اذربيجان • واضطر الشاه طهماسب الى طلب الصلح ، ووافق سليمان على الطلب واخلى تبريز مقابل تعهد الشاه بعدم الاعتداء •

الإدارة

بعد ان سيطرت الدولة العثمانية على العراق قسمته على أربع ولايات : بغداد ، وفيها ثمانية عشر سنجقا أو لواء اضافة الى المركز ، والموصل ، وفيها ستة سناجق، وشهرزور وفيها واحد وعشرون سنجقا بما فيها القلاع، والبصرة، ولم يكن فيا سناجق لتركيبها العشائري وتجبى ضرائبها بالالتزام • وقد

مكتبة احمد

حدثت فيما بعد تبدلات فرعية في هذه التقسيمات • ويرأس الجهاز الحكومي الوالي وغالبا ما يكون برتبة وزير • ولوالي بغداد صلاحيات اوسع مما لولاة الولايات الاخرى ، فكان له حق تعيين بعض الموظفين ومصادرة الاموال وهو مسؤول عن الادارة المدنية والعسكرية ، وعليه ضمان ولاء ولايته والمحافظة على أمنها وقيادة الجيش في الحملات العسكرية ويساعد الوالي موظف يعرف باسم كتخدا (خففت فيما بعد الى كهية) ، وهو يعاون الوالي في الشؤون العسكرية والسياسية وينوب عنه عند غيابه • اما الدفتردار فهو المسؤول عن الاحوال المالية بتسجيل ايراداتها ومصروفاتها في سجل خاص • ويلي الوالي في المكانة الاجتماعية القاضي ، فهو مسؤول عن تطبيق العدل والاهتمام بالمسائل الشرعية والاشراف على جمع الضرائب ومراقبة الاسواق ، وغالبا ما تكلفه الحكومة المركزية بمراقبة سلوك الوالي • ويساعد القاضي في تنفيذ اوامره موظفان ، يلقب الاول بـ (صوباشي) ـ وهي رتبة عسكرية ـ وهو بمثابة رئيس للشرطة في وقت السلم وقائد فرقة في وقت الحرب • والثاني يعرف باسم (احتساب أغاسي) ـ أي المحتسب ـ ، وواجبه معاونة الصوباشي والاشراف على تنفيذ الاوامر ومراقبة الاسواق • وبالاضافة الى هذه المناصب هناك : اغا الانكشارية وهو قائد الحامية، و (المكتوبجي) ـ كاتب الرسائل ـ و (مهردار) ـ حامل الاختام ـ و (خزنة دار) ـ أمين الصندوق ـ و (اختشامات أغاسي) ـ رئيس التشريفات ـ ، و (روزنامه جي) ـ كاتب الوقائع اليومية ، وغيرهم من الموظفين الاقل مرتبة •

كافة المناهج الدراسية

توطيد السلطة

مجاور الباب الاعظم

وكانت كبرى المشكلات التي واجهت الحكم العثماني للعراق في ولايتي

شهرزور والبصرة . فالاولى في منطقة الجبال على الحدود مع الدولة الصفوية ، ولهذا تعرض الحكم العثماني فيها الى الاخطار باستمرار . اما البصرة ، فهي تقع في منطقة قبائل شديدة المراس ، وكانت دائما تنازع سلطات بغداد . وقد أبدى العثمانيون مرونة مع الاسر المحلية المتنفذة التي أعلنت ولاءها . ومنها اسرة الشيخ راشد بن مغامس التي كانت تحكم البصرة ، وأقرها السلطان سليمان القانوني في حكمها ، كما مر بنا . ولكن اجراءات العثمانيين في تثبيت سلطانهم على منطقة البصرة والتحكم بشبكة الطرق التجارية ، دفعت اسرة راشد الى الثورة . فكانت هذه الثورة من جهة ، ورغبة العثمانيين في السيطرة الفعلية على رأس الخليج العربي ، من جهة اخرى ، سبب قيام الحملة العثمانية الكبيرة التي وجهت الى البصرة بقيادة والي بغداد أياس باشا في ١٥٤٦ . وسعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق الهزيمة بشيخ مشايخ آل قشعم الذي يلقب بشيخ العراقين ـ أي شيخ الكوفة والبصرة ـ ثم هزم آل مغامس ودخل البصرة حيث ربطها بالحكم العثماني المباشر . وبانهيار زعامة آل قشعم ، برزت زعامة قبيلة المنتفق التي اصبح لها النفوذ فيما بعد . غير أن الاجراءات التعسفية التي اتخذها العثمانيون ادت الى ثورة تزعمها علي بن آل عليان كبير مشايخ الجزائر(*) في ١٥٤٩/٩٥٦ . وكلف السلطان والي بغداد «تمرد على باشا» لاخماد الثورة، واصدر امره الى والي سيواس محمد باشا البالطه جي للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في العملية . وتقدمت

(*) تشمل الجزائر منطقة المستنقعات ما بين الكوفة وواسط في الشمال والبصرة في الجنوب وفيها حوالي ثلاثمائة جزيرة صغيرة اقيمت على بعضها القلاع .

القوات العثمانية الى واسط ومنها توجهت الى المدَيْنَة (قرب القرنة) مركز آل عليان. وبعد معارك شديدة بين رجال القبائل والقوات المهاجمة، فشل العثمانيون في تحقيق نتيجة حاسمة وبسبب طبيعة المنطقة غير المواتية للحروب النظامية، وامام بسالة المقاومة، وجد القائد العثماني « تمرد علي باشا » نفسه مجبرا على الانسحاب، وكلفه فشله منصبه، حيث صدر الامر بعزله وتعيين محمد البالطةجي باشا لمنصب والي بغداد. ولكن الدولة، نظرا لاهمية جنوب العراق ولا سيما البصرة من الناحيتين الستراتيجية والتجارية، وخوفا من استغلال البرتغاليين ـ حلفاء الصفويين ـ المتربصين عند مداخل الخليج، استمرت في سياستها الهادفة الى اخضاع القبائل واتباع سياسة قمعية شديدة. وقد أدى فشل الاسطول العثماني في صراعه مع البرتغاليين (١٥٥١ ـ ١٥٥٣) الى اضعاف هيبة العثمانيين في المنطقة، فاستغلت القبائل العربية ذلك لمعاودة الثورة واستطاع آل عليان في ١٥٥٣ صد حملة عثمانية وقتل عدد من أفرادها. وتزايدت جرأة القبائل واخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل. واشتدت ثورة آل عليان خطورة في عام ٩٠٤ ـ ٩٧٥/١٥٦٦ ـ ١٥٦٧، فنظمت الدولة حملة كبرى في ١٥٦٧ اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل كما أرسلت حوالي ٤٥٠ سفينة مزودة بمئتي مدفع عن طريق بيره جك عبر الفرات، واليطت قيادة الحملة بوالي بغداد اسكندر باشا. واستطاع العثمانيون تحقيق بعض النجاح، ولكن رجال القبائل واصلوا المقاومة باسلوب حرب العصابات وكبدوا القوات العثمانية خسائر كبيرة. فلم يكن من اسكندر باشا الا ان واصل ضغطه وامر ببناء بعض القلاع في المناطق الستراتيجية لتعزيز الوجود العسكري، ولكنه فشل في احراز نصر حاسم على رجال القبائل. فأمر بقطع اشجار النخيل واتلاف المحصولات التي تعيش عليها القبائل، مما

اضطر علي بن عليان الى طلب الصلح لقاء دفع ضريبة الى خزينة البصرة وتسليم أحد اولاده رهينة لدى السلطان . ولكن الامن لم يستقر ؛ وظلت الادارة مضطربة ؛ وقلت واردات الولاية حتى اصبحت لا تكفي لسد نفقاتها ، فاضطر الوالي علي باشا الى تسليم امور الولاية الى كاتب الجند افراسياب بن أحمد سنة ١٠٠٥/١٥٩٦ لقاء دفع ثمانية اكياس رومية (حوالي ٤٠٠٠٠ قرش) على ان تستمر الولاية مرتبطة بالدولة العثمانية وتدفع الجزية السنوية للخزينة المركزية . وبذلك تشكلت امارة لاتدين للدولة الا بولاء اسمي الى ان زالت في ١٦٦٨ اثر الحملة العثمانية التي قادها والي بغداد قرة مصطفى لانهاء استقلالها . وقد حققت امارة آل افراسياب في خلال حكمها للبصرة درجة من الرخاء والاستقرار والرفاه يفوق حال مدن العراق الاخرى .

سادت العراق حقبة من الاستقرار دامت قرابة نصف قرن ، تخللها عدد من الاضطرابات في منطقة البصرة نتيجة الثورات القبلية . وقد ادرك سليمان القانوني اهمية العراق وان ضياعه يعني تجدد الاطماع الايرانية في الاناضول ؛ فعمل على التمسك به ، وجند في سبيل ذلك امكانات مالية وعسكرية كبيرة تحديا لايران واصرارا على الوقوف امام اطماعها . واصبحت السياسة العثمانية في عهد قوة الدولة تقوم على الحفاظ على العراق وعدم التساهل في التنازل عن أي جزء منه . واختار العثمانيون لولاية العراق رجالاً امتازوا بالجرأة والبسالة جاءوا الى العراق ووراءهم امجاد عريضة في سوح المعارك ، وكان لدى قسم منهم كفاءة ادارية ، فنشطوا في تأمين النظام داخل المدن ؛ وفي قتال القبائل البدوية خارجها ؛ وصد تدخلات الصفويين عبر الحدود . وشيد بعض اولئك الولاة في بغداد عدداً من الجوامع والمدارس من ابرزها جامع المرادية الذي

تشيده والي بغداد مراد باشا كما عمّر والي بغداد سنان باشا جغال زاده جامع الصاغة او جامع الخفافين ، وأعاد بناء التكية المولوية (التي عرفت فيما بعد باسم جامع الآصفية) ، كما بنى خانا ملاصقا للمدرسة المستنصرية مما دل على ازدهار الحالة الاقتصادية • وبنى حسن باشا الصوقلي جامع الوزير في بغداد، وهو اول جامع يشيد بالحجر الذي جلب من الموصل عن طريق نهر دجلة ، واحيا اجزاء من الاراضي الزراعية ، كما وسع الخندق المحيط بسور المدينة وشيد سوقاً وخاناً •

ونشطت الحياة التجارية نشاطاً ملحوظاً في هذه الحقبة ، واصبحت بغداد مركزاً تجارياً مهماً • فقد زارها عدد من الرحالة والتجار الاجانب ودونوا انطباعاتهم عنها • واشار بعضهم الى مافيها من ارصفة للمراكب ، وبضائع تباع باسعار رخيصة ، ودار لضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية •

ثم أخذ الوضع العام في العراق بالتدهور ، وبدأت الفوضى وعدم الاستقرار بالانتشار مع مطلع القرن السابع عشر، وكثرت الحركات الانفصالية، فاستغلها الصفويون المتربصون بالعراق لغزوه • وترجع هذه الحالة الى الوهن الذي دبّ في اوصال الدولة العثمانية نفسها منذ اواخر القرن السادس عشر نتيجة لعوامل داخلية وخارجية متشابكة، منها: ضعف شخصيات السلاطين وتضاؤل قدراتهم وقابلياتهم ، وفساد الجهاز الاداري والعسكري، وتمردات الانكشارية ، وتدخل الحريم في شؤون الدولة ، والازمة الاقتصادية المتمثلة في هبوط قيمة العملة(*) • وتزايد قوة أعداء العثمانيين في اوربا ولاسيما روسيا

(*) في الوقت الذي كانت فيه الدولة تعاني ضائقة اقتصادية في النصف الثاني من القرن السادس عشر بسبب عوامل متشابكة ، حدث تطور عمّق ←